أثر التركيب النحوي في الاستعارة القرآنية - دراسة بلاغية وصفية-

أ.زينب دوادي
أستاذة مساعدة
جامعة الحاج لخضر- باتنة

الملخص:

يتناول هذا المقال أثر النحو وفعاليته في العبارة الاستعارية وتحديد معناها المتوخى والمؤثر أو ما اصطلح البلاغيون على تسميته "بالنظم" وما للتركيب النحوي من دقة تقوي التعبير الاستعاري ذي الخصائص الجمالية.

وقد أثرى علماء العربية الدرس البلاغي في مجال الاستعارة بمفاهيمهم الجادة في الربط بين القواعد البلاغية والقرآن وما تضمنه من استعارات تميزت بنظمها وتركيبها النحوي ذي التأثير والفعالية المتجددة ، مما يعطي للغة دورها الإبداعي والإيحائي الفريد ، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالصور الاستعارية الإعجازية في كلام الله تعالى القدرة العليا والمثل الأعلى للبيان والإيضاح،وإنما الغاية من بسط هذا الموضوع ليس للغرض اللغوي وحسب، وإنما هو مقصد للاستزادة من معرفة أسرار الأسلوب القرآني قمة البلاغة وأوج البيان .

مقدمـــــــة:

استند علم البلاغة على جهود اللغويين والمتكلمين والنقاد لكي يبرز علما له أسس وقواعد ، ومن أهم العلوم اللغوية التي أفادت منها البلاغة علم النحو وما له من صلة وثيقة بالتركيب الجملي من شعر ونثر ومثل وحكمة، وكذا القرآن الكريم الذي كان وضع قواعد النحو مساعدا على تفهم معانيه والغوص في معرفة مرامي آياته المحكمات ، وعملا يقي قارئ القرآن من اللحن والخطأ في رفع كلمة أو نصبها بدل جرها مثلا، فيحدث الخلل في المعنى ولا يستقيم الكلام إلا بمعرفة التركيب النحوي الصحيح البعيد عن اللحن في الكلام ككل وفي القرآن الكريم خاصة المتضمن للأحكام والأوامر الإلهية الموجبة التطبيق والتنفيذ ، «كما أن العرب كانت تنظر في فصاحة الكلام وجزالته ، وبسط المعنى و إبرازه وإتقان بنية الشعر و أحكام القوافي وتلاحم الكلام بعضه ببعض »(1)، فترتيب العبارات وحسن صوغها ترتبط إذن بالتركيب النحوي وهذا التركيب يجب أن يتوافق والغرض أو الوجه المتناول فما يستوجب على ناظم الكلام أن يوظف آليات أسلوبية تتناسب وموضوع الكلام وذلك بالجمع بين حسن النظم وتأليف الكلام ،وللعبارة الاستعارية فاعليتها الإبلاغية التي ترتبط بصحتها اللغوية نحويا وعمق معانيها فكريا و عقائديا وجمال عرضها بلاغيا و للتدليل على هذا الحكم سأتناول جوانب لغوية نحوية مع إيضاح مدى ارتباط التصوير البياني بالتركيب النحوي.

و قد حددت وظيفة النحو بالبحث في أحوال أواخر الكلمات العربية وعن موقع المفردة ضمن التركيب الجملي، ومن ثم معرفة دورها في آداء المعنى، كما حددت وظيفة البلاغة بمراعاة الكلام لمقتضى الحال في إيصال المعنى ضمن العلوم البلاغية الثلاث وهي المعاني والبيان والبديع ومتى ما تضافرت هذه الوظائف في حسن التوصيل والإبلاغ كان المضمون مؤديا للمعنى ، فقالوا " أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات و إنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة"(2)وهذا التكامل الذي نلحظه بين مختلف علوم العربية، وبالأخص بين النحو والبلاغة هو ما حدا بعبد القاهر الجرجاني(ت474هـ)، إلى التأكيد" أن مدار النظم على معاني النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس

لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها.... ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض"(3)

وابن رشيق(ت456هـ)، من الدارسين الذين لاحظوا أن العرب كانت تفحص كلامها حتى يكون فصيحا وواضحا،ومتلاحما بعضه مع بعض،حيث يقول:« العرب أفضل الأمم وحكمتها أشرف الحكم،لفضل اللسان على اليد،والبعد عن امتهان الجسد،إذ خروج الحكمة عن الذات بمشاركة الآلات،ولا بد للإنسان من أن يكون تولى بنفسه أو احتاج فيه إلى آلة أو معين من جنسه »(4)

وذلك ليكون الكلام متآلفا ومتضمنا الحكمة الموصلة إلى الفهم الناتج عن تلاحم الكلام بعضه ببعض ، وهو أرقى ما وصل إليه الفن البلاغي على يد النقاد وهو الذي فسره لنا عبد القاهر في" نظرية النظم "ونزول القرآن بلسان عربي مبين قد توج فصاحة العرب وبرهن على بلاغتهم التي لا تبارى فكان القرآن متحديا هذه الفصاحة الكاملة وتلك البلاغة التامة ، وكان الرسول –صلى الله عليه وسلم- أفصح العرب (5)،بكلامه الواضح وأسلوبه القرآني المتميز بمتانة التركيب اللغوي وبلاغة الصورة البيانية مما يحدث أثرا في النفس الواعية المتبصرة .

والبلاغة تتناول نظم العبارة وتأليف اللفظ وتركيب الجمل كما أن«الاستعارة لها وظيفة فعالة على مستوى اللفظ والتركيب الخبري " الجملي " وذلك في حالة ما إذا استعملت كلفظ أو كتركيب لفظي على حد السواء ... »(6)إذا ما احتوى هذا الكلام معاني تؤثر في النفس المتذوقة له . «والتركيب النحوي أحد العناصر المرتبطة بتأليف العبارة الاستعارية وقد لاحظ بعض النقاد

ما يتميز به التركيب النحوي من خاصيات دقيقة ، وما فيه من ثراء وغموض وتعقيد ، وأثره في إعطاء مفهوم خاص للشعر، وفي ظل هذه العناية الفائقة بالتشكيل النحوي والإلحاح المستمر على أن الشعر طريقة في تأليف الكلام وربطها وتنظيمها نشأت نظرة خاصة إلى الشعر، وأخذت مسألة تنظيم الكلمات أهمية خيالية في جماليات النشاط

التصويري، ... هذه المسألة أثارت الناقد القديم ووجهته إلى مسائل جدية تدور حول تركيب الشعر ولغته ومعناه ، وجعلته مفتونا بفكرة الترابط المعقد أو النظم ،... وفكرة " النظم " تستعمل عادة للدلالة على كل ما له صلة بالبحث في الهيئات النحوية للكلمات وما قد ينتج عنها من مزية وجمال، وتطلق أحيانا مرادفة أو دالة على المعاني القائمة في النفس وذلك عندما تكون المزايا في المعاني موضوعية ذوقية» (7).

وقد اهتم النحاة بوضع القواعد اللغوية التي تحفظ الكلام من الخطأ وإذا حدث تغير في صياغة الجملة بخرق القواعد الموضوعية كان من الضروري في رأي – النحاة – البحث عن تخريج لهذا " الخرق" لذا نراهم يتحدثون– في كتبهم– عن التقدير والتأويل والحذف، وعن أصل الكلام والإضمار، ...» (8) كذلك « وقف البلاغيون مثلا عند ظاهرتي التقديم والتأخير وجواز أن يقدم في الكلام ما حقه التأخير وأن يؤخر ما منزلته التقديم، وعلة ذلك أن التقديم والتأخير يحققان أهدافا جمالية لا يحققها الالتزام بالرتبة العادية للعبارة ... »(9).

والتشكيل النحوي للعبارة الاستعارية يجعلها ذات معان مترابطة ولا يمكن أن تحقق أثرها ونقف على جمالياتها لولا هذا التركيب الخاص الذي وردت به ويتجلى ذلك خاصة في القرآن الكريم وقد أوضح ذلك عبد القاهر الجرجاني، بقوله: « اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ... »(10) ويعلل عبد القاهر ضرورة اعتماد النظم في الصور البيانية فيقول:

« ذلك لأن هذه المعاني التي هي الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم، وعنها يحدث و بها يكون، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم، وهي أفراد ولم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو ... »(11).

و التعبير الاستعاري في القرآن الكريم أساسه التركيب النحوي المبدع والمنظم حيث جعل القرآن «من نظمه طريقة نفسية في الطريقة اللسانية، وأدار المعاني على سنن ووجوه

تجعل الألفاظ كأنها مذهب هذه المعاني في النفس، فليس إلا أن تقرأ الآية على العربي أو من هو في حكمه لغة وبلاغة، حتى تذهب في نفسه مذهبها ... »(12).

ويمكن القول أن آراء العلماء الدارسين للقرآن وإعجازه قد اجتمعت بين يدي عبد القاهر فأعمل فيها فكره الثاقب وإحساسه النافذ، فرفض أن يكون مدار البلاغة على اللفظ، أو على المعنى، وإنما البلاغة في العلاقة بين الألفاظ في العبارات من جهة، وبينها وبين المعنى من جهة أخرى، وتسمى هذه العلاقات بالنظم« فلا يتصور أن يكون ههنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره، أفلا ترى أنه إن قدر في " اشتعل " من قوله تعالى:« واشتعل الرأس شيبا »(13) أن لا يكون الرأس فاعلا له ويكون" شيبا" منصوبا عنه على التمييز لم يتصور أن يكون مستعارا وهكذا السبيل وفي نظائر الاستعارة فاعرف ذلك»(14) ولذلك فإن مفهوم النظم عند عبد القاهر يتلخص في قوله: "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها...." (15)

ومن التعابير الاستعارية الواردة في القرآن الكريم والتي سنقف عند إيضاح معناها و مدى ارتباطها بالتشكيل النحوي قوله تعالى: « والصبح إذا تنفس »(16) وقد شبه الله

عزوعلا إقبال النهار وسطوع الضياء بنسمات الهواء العليل التي تحي القلب واستعار لفظ التنفس لإقبال النهار بعد الظلام الدامس وهذا من لطيف الاستعارة وأبلغها تصويرا حيث عبر عنه بتنفس الصبح ، ويقول الزمخشري في هذه الآية : «... فإن قلت ما معنى تنفس الصبح ؟ قلت: إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفسا له على المجاز، وقيل: تنفس الصبح...» (17) فقد أقسم الله سبحانه بآيات كونية بديعة وكثيرة تدعونا إلى الإيمان ومنها الليل والنهار، وهنا في هذه الآية « أقسم الله بضوء النهار إذا أقبل وتبين »(18) ويوضح الصابوني فهمه للآية بقوله:

«والصبح إذا تنفس» أي بالصبح إذا أضاء وتبلّج، واتسع ضياؤه حتى صار نهارا واضحا »(19).

إن تركيب هذه الآية جاء اسميا بتقديم الصبح وذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد أقسم بـ: «والليل إذا عسعس »(20) ثم بالصبح أو بالنهار إذا " تنفس " والتنفس صفة للإنسان أو الحيوان كظاهرة حيوية تتوقف عليها الحياة ، ثم بعد الاسم: " الصبح "ورد الفعل الذي سبقته أداة الشرط غير الجازمة " إذا " فندرك مدى فاعلية هذا التركيب النحوي الاستعاري بهذه الصياغة دون غيرها ، فإذا ما قلنا : « إذا تنفس الصبح » يكون أسلوب القسم غير وارد من ناحية وتكون صفة " التنفس " هي المهتم بها حين تقديمها ، ومن ثم فإن هذا التركيب القرآني " والصبح إذا تنفس " تركيب مبدع ونظم لا يتأتى إلا للجمل القرآنية وللتعبير الإلهي الخلاق، وإنما قد ساهمت في تكامل هذا التعبير عدة عوامل لغوية من جهة وبلاغية من جهة أخرى، فالنحوية مثلا :

استعمال أسلوب القسم وأسلوب الشرط + التركيب الاسمي المتفاعل مع الفعل مناط الاستعارة ، والجانب البلاغي أشد ما يرتبط بالصورة الاستعارية وهذا التجسيم والتشخيص الاستعاري بإبراز المعنوي في صورة المحسوس، ولاستجلاء هذه الارتباطات بين اللون البياني والتركيب النحوي وما قد يفرزه من ثراء في المعاني من مرتبة بليغة إلى مرتبة أبلغ نقف على الشكل الآتي والمتخذ قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيبا »(21) أنموذجا. « إني وهن العظم مني »

أولا :أصل معنى الكلام ومرتبته الأولى :

- يا رب قد شخت – الشيخوخة = ضعف البدن و شيب الرأس ...

2 - مزيد التقرير و التفصيل :

- يا رب قد ضعف بدني وشاب رأسي .

3-الكنـاية

:

الإنتقال من المعنى إلى مجاوره

أو الإنتقال من اللازم إلى الملزوم

4- مرتبة أبلغ في التقرير : [بناء الكناية على المبتدأ]

- يا رب أنا وهنت عظام بدني وشاب رأسي .

5- مرتبة أبلغ : [إدخال إن على المبتدأ]

- يا رب إني وهنت العظام من بدني وشاب رأسي.

6- تقرير أن الواهن :هي عظام البدن [سلوك الإجمال والتفصيل] :

- يا رب إني وهنت العظام من بدني وشاب رأسي

7- مزيد اختصاص العظام به : [ترك توسط البدن] :

- يا رب إني وهن العظم مني وشاب ر أسي .

8- شمول الوهن للعظام فردا فردا : ترك الجمع إلى الإفراد لصحة حصول وهن المجموع بالبعض

- إني وهن العظم مني ...

*- « واشتعل الرأس شيبا »

1- حقيقتـه :

- شاب رأسي

2- مرتبة أبلغ من الحقيقة: [الاستعارة]

- اشتعل شيب رأسي

3- مرحلة أبلغ في إفادة الشمول: [إسناد الاشتعال إلى الرأس]

- اشتعل رأسي من الشيب

4- مرتبة أبلغ : [الإجمال والتفصيل بالتمييز + التنكير]

- اشتعل رأسي شيبا

يظهر من هذا التحليل أن الانتقال من مستوى إلى آخر عملية معقدة لا تتم إلا بتضافر عناصر النظام اللغوي وتكاتفها، و نلاحظ أولا : تفاعلا بين المعنى والبنية النحوية ، فلكل درجة من درجاته شكل في التعبير يلائمها إما بإضافة عناصر جديدة كإدخال " إن " على المبتدأ في المرتبة الخامسة أو بإطراح عناصر كانت ماثلة في السياق كالاستغناء عن الجار والمجرور والمضاف إليه في المرتبة السابعة ،... »(22) .

وسأعتمد مبدأ التحولات (Transformation) لوصف الأطوار التي يمر بها المعنى من وقت تولده في ذهن صاحبه إلى أن يعطيه شكلا فنيا ملائما .

ومن ذلك قوله تعالى « ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور »(23).

- « ليخرج ... من الظلمات إلى النور »

1- حقيقتـه :

- ليخرجهم من الليل بظلامه إلى النهار بنوره

2- مرتبة أبلغ من الحقيقة : [الاستعارة]:

- ليخرجهم من ظلام (الجهل) إلى نور (العلم النافع)

3-مرتبة أبلغ في إفادة الشمول : [إعطاء الدلالات المحددة للمشبه به]

- ليخرجهم من الجاهلية إلى الإسلام

4- مرتبة أبلغ : [إطلاق لفظ المشبه به: الظلام والنور وحذف المشبه: الجهل والعلم] على سبيل الاستعارة التصريحية.

فنلاحظ التفاعل بين المعنى والوجه البلاغي والبنية النحوية أو التركيب النحوي ، فقد جاء في المرتبة الأولى وصف الليل بالظلام والنهار بالنور باستعمال الجار والمجرور غير أنهما ليسا المقصودين وإنما هما دلالتان لإيضاح الوجه البلاغي وإيضاح التركيب النحوي وفي المرتبة الثانية استعمل الجار والمجرور"من ظلام"+المضاف إليه"الجهل"،وكذا استعمل الجار والمجرور إلى نور+ المضاف إليه "العلم" وفي المرتبة الثالثة أعطيت المدلول المحدد للمشبه المحذوف أو المقدر لغويا لاستقامة المعنى وانتهينا إلى التعبير الاستعاري القرآني الأبلغ وهو ما تضمنته الآية من تركيب يزيد الاستعارة فاعلية ودلالة للمعنى(24).

لذلك فإن أهم جانب في تناول عبد القاهر لنظرية النظم هو " ما ألح عليه من أن فكرة العلاقات" تنطوي على حركة خلق مستمرة في اللغة ترجع إلى موقع الكلمة من السياق وعلاقتها به حيث يقول : « لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض ... »(25).

« وإن الفكرة التي يلح عليها الجرجاني إلحاحا شديدا تتعدى نمط التعبير المألوف ولا تقف عند حدود صحة التركيب ، ولا يشغلها المعنى الأصلي ، إنما هي منفذ لحرية المتكلم في اختيار أدواته التعبيرية، والعدول بها عما درج عليه المتكلمون العاديون في خلق طاقات حية في التصوير والصياغة والأسلوب ، وتلك ميزة الإعجاز ... »(26).

وإن تصور عبد القاهر الجرجاني ينطلق من مفهوم بسيط -وإن احتاج إلى برهنة- مفاده: «أن الألفاظ لا تتزايد وإذن يجب أن يكون التزايد في المعاني»،وأما كون الألفاظ لا تتزايد فلأنها وضعية مشتركة ،سواء أحملنا اللفظ على معنى الوحدة المعجمية أم حملناه على معنى التركيب،أما كون المعاني تتزايد فإن الجرجاني لا يقصد بالمعاني المعاني النحوية،فهي ثابتة ثبات الأبنية ولولا اشتراك الناس في معرفتها لما أمكنهم التخاطب ،غير أن التزايد من هذه الناحية، يقع في محصول النظم أي توخي معاني النحو في معاني الكلم وهي خصوصيات تركيبية أساسها ضروب التعليق التي تدل على غرض المتكلم» (27).

و من سمات النص الرفيع : مراعاة أوضاع النحو : وذلك بأن يضع الأديب كلامه حسب «قوانين النحو وأصوله وكما ينبغي أن لا يتوقف الناقد عند حدود الصحة النحوية ، ولكن يغوص في أعماق التركيب ... » (28)

والقرآن الكريم أرفع نص عربي ومن ثمة فإن أوضاع النحو والصحة النحوية إلى جانب الصياغة المتفردة التي يزخر بها القرآن جعلته أسمى وأبلغ كلام عربي وهي معجزة محمد -صلى الله عليه وسلم- الخالدة.

ثانيا :الأشكال النحوية للتعبير الاستعاري :

يحاول المبدع في تعامله مع الألفاظ الموجودة في متناول كل الناس أن يدفع اللغة في اتجاه جمالي يصنع الجمال بالكلمات كما يصنعه الرسام بواسطة الألوان فهو لا يحيد عن السنن النحوية التي يسير عليها الكلام في اللغة ،و إنما يخلق علاقات جديدة تتصف بالانحرافية و اللاملاءمة ، لذلك يمكن للاستعارة أن تتخذ عدة أشكال نحوية هذه الأشكال تتلخص بالاستعارة الفعلية (نسبة إلى الفعل) والاستعارة الاسمية (نسبة إلى الاسم) والاستعارة بالصفة (29)، وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى هذا التقسيم الاستعاري فقال:« اعلم أن كل لفظة دخلتها الاستعارة المفيدة فإنها لا تخلو من أن تكون اسما أو فعلا »(30).

وسأورد فيما يلي نماذج لاستعارات فعلية وأخرى اسمية مع استنباط فاعليتها في السياق القرآني.

أ – الاستعارة الفعلية :

تقول بوقيرو: « يكون الفعل استعارة بفاعله اللاحي والجامد بينما ننتظر له فاعلا حيا ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية يكون من خلال طبيعة المفعول إذا كان الفعل متعديا » ، ونكاد نقع على التحديد نفسه عند " لوغورن " في قوله: « تكون الاستعارة بالفعل عندما نلمح لا ملاءمة دلالية بين الفعل والفاعل من ناحية وبين الفعل والمفعول من ناحية ثانية »(31).

ويؤدي الاضطراب أو الانحراف الحاصل في العلاقة المنطقية بين الفعل والفاعل إلى اضطراب في فهم النص ولا يزول الاضطراب إلا من خلال عملية عقلية تزيل الانحراف بواسطة تشبيه مضمر إذ قال تعالى: « اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها » (32).

فالفعل " يحي " في الآية منسوب إلى " الأرض "، وهي صفة للإنسان، وكذا " الموت "، ومن ثم يمكن تصور تشبيه: يحي الله الأرض بعد موتها كما الإنسان أو الحيوان مثلا.

وهنا لدينا تشبيه حذف أحد طرفيه وهنا حذف المشبه به (الإنسان أو الحيوان) وترك ما يدل عليه وهما صفتا : " الحياة و الموت " فقد نسب الفعل إلى مفعول لا حي وهو الأرض فنشأ هذا الاضطراب في فهم النص والذي أزيل بتقدير تشبيه مضمر على سبيل الاستعارة المكنية على الرغم من أننا نلاحظ أن الجامع بين الأرض والإنسان قريب من أن الله يحي الأرض والإنسان برزقه ورحمته فهو الذي جعل « من الماء كل شيء حَيٍّ »(33). فحين تزهو الأرض بخضرتها وخصبها تكون حية وحين تجف وتتعرض للجدب توصف أنها ميتة والعلاقة وطيدة بين حياة الأرض وموتها وحاجيات الإنسان الحيوية والتي مصدرها الأرض. ويمكن إيضاح العلاقة الواردة في الآية من خلال المشابهة الآتية:

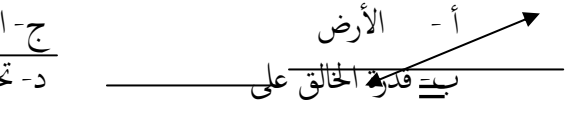

- الإحياء والموت (للأرض)

[آية على قدرة الله]

لقد أخذ العنصر (أ) من العلاقة المعيارية (أ ب) والعنصر (د) من العلاقة المعيارية

(ج د) ليؤلف مجموعة جديدة (أ د) قائمة على علاقة انحرافية .

وقوله: « إن الله يحي الأرض بعد موتها » استعارة تمثيلية مكنية بسبب تضمنها تشبيه حال ذكر الله والقرآن في إصلاح القلوب بحال المطر في إصلاحه الأرض بعد جدبها وطوي ذكر الحالة المشبه بها ورمز إليها بلازمها وهو إسناد إحياء الأرض إلى الله لأن الله يحي الأرض بعد موتها بسبب المطر و المقصود الإرشاد إلى وسيلة الإنابة إلى الله والحث على تعهد النفس بالموعظة، والتذكير بالإقبال على القرآن وتدبره(34)

« لذلك فإن العوامل النفسية PSYCHOLOGICAL أوثق علاقة بالنصوص منها بالجمل ... فالجملة من حيث الصياغة الذهنية شكل استكشافي أما حدود الجملة فيتم تعيينها فيما بعد أثناء إنتاج النص...» (35) فمثلا قوله تعالى:« سنفرغ لكم أيها الثقلان»(36) جملة فعلية يمكن اعتبارها نصا يتضمن وعيدا إلهيا للإنس والجن وله تأثير نفسي يرعب النفس الخاشعة لله ، «ومعناه سنقصد ، لأن القصد لا يكون إلا مع الفراغ ، ثم إن الفراغ ههنا معنى ليس في القصد وهو التوعد والتهديد »(37).

ب- الاستعارية الاسمية: يكون التعبير الاستعاري اسميا في أشكال نحوية متعددة نتوقف عند أهمها:

أ- الاسم / الفاعل في الجملة الفعلية: إن العلاقة الانحرافية بين الفعل والفاعل قد تؤدي أيضا إلى استعارة اسمية وذلك عندما تتم إزالة الانحراف بواسطة التشبيه المضمر الذي يدور حول الفاعل ، وتكون الاستعارة تصريحيه بينما هي مكنية في لفظ الفعل ، والذي يدلنا على ذلك هو السياق العام (38).قال تعالى: « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون »(39) .

فإذا شرحنا العلاقة الانحرافية بين الفعل (يطفئوا) والمفعول (نور الله) تكون الاستعارة تصريحيه حيث حذف فيها المشبه (الإسلام والحق والهدى) وأبقي على المشبه به (النور) ، وقد تكون مكنية في لفظ الفعل (يطفئوا) في السياق (يطفئوا نور الله أفواههم) ،ومعنى الآية « ... بأنهم (اليهود) يريدون أن يخفوا الإسلام عن الناس ويعوقوا انتشاره ومثلت حالتهم بحالة نفر يبتغون الظلام للتلصص أو غيره مما يراد فيه الاختفاء ، فلاحت لهم ذيالة مصباح تضيء الناس فكرهوا ذلك وخشوا أن يشعّ نوره على الناس فتفتضح ترهاتهم فعمدوا إلى إطفائه بالنفخ عليه فلم ينطفئ، ... وهنا لدينا تشبيه الهيئة بالهيئة أو تشبيه المعقول بالمحسوس »(40).

إن استعمال لفظة " النور " في هذا السياق القرآني يدلنا على أن المعنى الأول للفظة لا يفي بالغاية ، وإنما هناك انتقال في الدلالة إلى " معنى المعنى " إلى الحقيقة الثانية (الإسلام)، وإن العلاقة القائمة بين النور والإسلام هما قطبا التعبير الاستعاري ، وهي اشتراك حقلي الدلالة لكل منهما بوحدات معنوية مشتركة ، فالممثل بدائرة الحقل الدلالي (Champ Semantique) لكل لفظة وهذا الحقل الدلالي يمكن تحديده كما يلي:

(أ) النور (ب) الإسلام

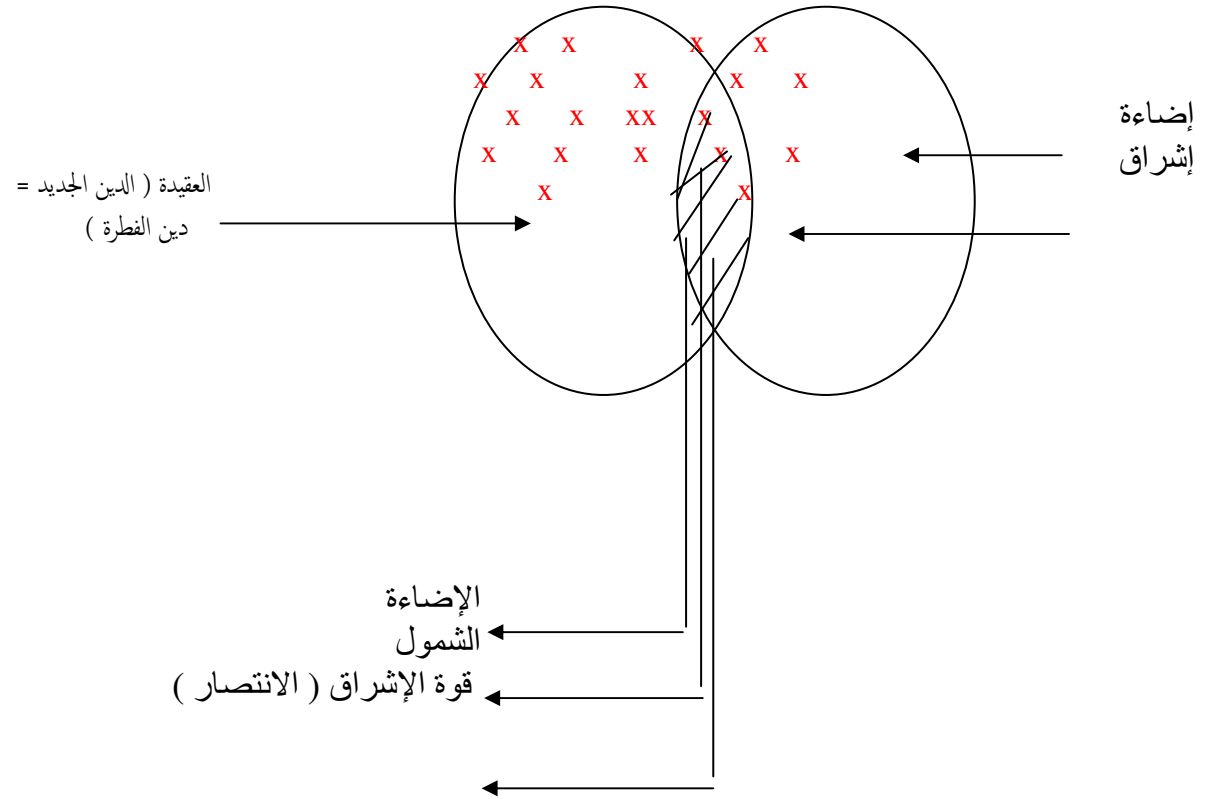

المساحة المخططة هي المساحة المشتركة بين حقلي الدلالة للحقيقة (أ) وللحقيقة (ب) وإذا أردنا إظهارها من خلال زاوية الاستعارة فتبدو على الشكل التالي:

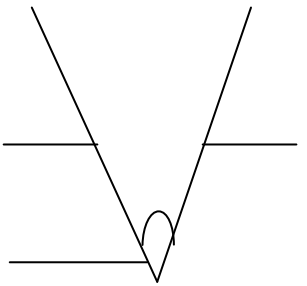

(أ) النور

(ب) الإسلام

زاوية الاستعارة ضيقة ، لقرب خطها الأول " النور" من خطها الثاني " الإســـــلام "

ومن هنا فإن الاستعارة بمفهومها التعبيري لا تنحصر في الآلية المجازية البيانية المعتمدة على التصوير الفني، « أو تنحصر في مجالات لغوية ضيقة بل يتعدى ذلك إلى استعارة الوضعيات والمقامات .» (41)المرتبطة كذلك بوضعيات الفكرية أو حتى الحياتية المتعددة للاتساع التعبيري لهذا الضرب البياني المتفرد بتجدده وفعاليته .

خاتمة

أوردت نماذج قرآنية لإيضاح علاقة النحو بالاستعارة وذلك لأن العلاقات النحوية يمكن فهمها فهما أفضل من علاقات تطور المعاني في المعاجم وقد برهنت الأساليب التركيبية الحديثة على أنها أكثر ما تكون مفيدة في حقل التحليل النحوي ، فالأصناف النحوية تشمل اللغة بأسرها وتضفي على كل منها خاصيته المميزة، وتتفاوت هذه الأصناف من لغة لأخرى ، واللغة العربية لها دلالاتها النحوية المرتبطة باللون البلاغي، كما أن التركيب

النحوي يتمازج ويتكامل مع التعبير البياني الاستعاري ليكون المعنى أكثر جلاء واللفظ أنقى إبداعا.

ولئن كان علم النحو يدرس تكون البنية العاملية باعتبارها بنية دلالية لفظية ،فينظر في كيفية التركيب وأصل المعنى ، وعلم البلاغة يدرس مطابقة القول لمقتضى الحال بتحليل خواص التراكيب بحسب وظيفتها التخاطبية في صلتها بالغرض المتناول من إيراد القول ومدى تحقيق خصائص التركيب لهذه الأغراض،فالنحو يعنى دلاليا بالدلالة الوضعية في حين تركز المعالجة البلاغية على ما في القول من قرائن وأدلة نحوية على اعتقادات المتكلم وآلية تصوراته للمخاطب والمقصد و الغرض من عملية التخاطب في مقام من المقامات، لذلك فإن الدلالة التي يستخرجها البلاغي دلالة أساسها الملازمات بين خواص التراكيب ومقتضيات الأحوال،فالعلاقة بين النحو والبيان علاقة يتمم فيها الثاني الأول وهو تصور يفترض ضربا من التواصل المتآلف وإن كانت المعالجة النحوية سابقة زمنيا واعتباريا التأمل البلاغي فإن علاقة الاحتواء التي نستشفها تتمثل في أن علم البيان يحتوي نتائج التحليل النحوي مادام الجامع بينهما هو التركيب الذي ينظر النحوي في كيفية بنائه و ينظر البلاغي في فنياته وخواصه.

ونجد الدلالة النحوية في الاستعارة القرآنية تتمحور في مستويين هما:

1-مستوى العلاقة بين دلالة الألفاظ وترتيبها مما يوفر ربطا بين المعاني النحوية والمعاني المعجمية وهذا ما يستدل به على أغراض المتكلم.

2- ومستوى العلاقة بين دلالة الألفاظ والصورة المجازية الاستعارية، وهي علاقة تقوم على اعتبار الألفاظ المرتبة على مقتضى النحو هي المعاني المقصودة.

والفرق بين المستويين كالفرق بين دلالة النار المشتعلة وهي الأثر على وجود مشعل لها وهو المؤثر،ودلالة الدخان على وجود النار وهو أثر آخر يدل على وجود المشعل للنار أو المؤثر، وهذا ما يعني أن المجاز في الاستعارة أشد تعقيدا من التعبير غير المجازي،لأنه يدل على الأثر الفني الذي ينطبع في عقل وروح المتلقي ،خاصة إذا تعلق الأمر

بالتصوير المجازي الاستعاري القرآني وما له من فاعلية تأثيرية ،سواء أكان الأمر مرتبطا بالاستعارة الملائكية المتضمنة ثوابا وجنانا،أو مرتبطا بالاستعارة العقابية الزجرية والمتضمنة وعيدا وعذابا، وإن كانت الاستعارات الزجرية في القرآن الكريم أكثر قوة في التوجيه وأشد جزالة في الإيحاء لأداء الدور الإبلاغي والرسالي المنوط به وقد كان ولازال مستوفيا له بتنوع الأساليب وثراء اللغة القرآنية المعجزة .

الهوامـــش و المراجـــع

1- عبد القادر حسين – أثر النحاة في البحث البلاغي – دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، دط. دت، ص12.

2- أحمد درويش ، دراسة الأسلوب بين المعاصرة و التراث ، دار غريب للطباعة و النشر ، القاهرة ، ص 102 .

3- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الأعجاز، تعليق محمود محمد شاكر ،مكتبة الخانجي للطباعة والنشر القاهرة، الطبعة الثالثة 1413هـ 1992م ،ص 87.

4- ابن رشيق –العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده-ت:محمد محي الدين عبد الحميد-دار الجيل، بيروت، 1981م، ص19.

5- عبد القادر حسين – أثر النحاة في البحث البلاغي - ص13.

6- Marc Bonhomme – les figures clés du discours , Editions du Seuil , Paris ,1998, p 60 : “la metaphore fonctionne a la fois sur le mot et sur l’énonce , si elle se fixe sur un mot ou sur un groupe de mots“.

7- تامر سلوم – نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، دار الحوار للنشر والتوزيع- سورية – ط1 ، 1983م، ص 112

8- فتح الله أحمد سليمان – الأسلوبية (مدخل نظري ودراسة تطبيقية) – الدار الفنية للنشر والتوزيع -القاهرة – 1990 م، ص 23.

9- المرجع نفسه، ص26.

10- عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز، صححه محمد عبده وعلّق عليه رشيد رضا، دار الكتب العلمية ، بيروت، ص 64.

11- المصدر نفسه ، ص 299.

12- الرافعي – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مكتبة رحاب ، الجزائر، ص262 .

13- سورة مريم، الآية: 4 .

14- عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 301

15- المصدر نفسه ، تقديم:محمود محمد شاكر،مكتبة الخانجي،القاهرة، ص81.

16- سورة التكوير، الآية: 18

17- الزمخشري ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة بيروت -لبنان- ج4 ، ص 224.

18- الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني وصالح أحمد رضا ، مكتبة رحاب الجزائر، المجلد 2، ص 521-522.

19- الصابوني، صفوة التفاسير، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، 1401 هـ، ص 525.

20- سورة التكوير، الآية: 17.

21- سورة مريم، الآية: 4.

22- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب ، المطبعة الرسمية ، تونس - ص 416-418.

23- سورة الطلاق، الآية: 11.

24- تامر سلوم، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، ص 112.
25- محمد خان، الإعجاز ونظرية النظم لدى الجرجاني، مجلة (التواصل)، تصدرها جامعة عنابة ، العدد 8 ، 2001 م، ص 181.
26- المرجع السابق، ص 186.
27- شكري المبخوت،الاستدلال البلاغي،دار المعرفة للنشر ،تونس،ط 1، 2006،ص68.
28- صبحي البستاني، الصورة الشعرية في الكتابة الفنية، دار الفكر اللبناني، ط1، 1986 م، ص82.
29- المرجع نفسه،ص83.
30- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، صححه وعلق عليه محمد رضا، دار المعرفة،بيروت – لبنان - ص34.
31- صبحي البستاني، الصورة الشعرية في الكتابة الفنية، ص 83.
32- سورة الحديد، الآية: 17.
33- سورة الأنبياء، الآية: 30.
34- محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984 م، الجزآن 27-28 - ص 294.
35- روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: د. تمام حسان، عالم الكتب – القاهرة، ط1، 1988 م ،ص 93.
36- سورة الرحمن، الآية: 31.

37- فايز الداية، البلاغة العربية، (البيان والبديع)، منشورات جامعة حلب، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، ص 55.

38- صبحي البستاني، الصورة الشعرية في الكتابة الفنية، ص84.

39- سورة الصف، الآية: 8.

40- محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير،الجزآن 27-28، ص19.

41- عبد الإله سليم ،بنيات المشابهة في اللغة العربية-مقاربة معرفية-دار توبقال للنشر ،دار البيضاء، المغرب،ط2001،1،ص98.